الفصل الثاني:
حب الخلاء وحكمته

كان محمد صلى الله عليه وسلم في صباه وشبابه على طباع غير طباع شباب مكة فلم يسجد قط لصنم ولم يمل إلى ما كانوا يميلون إليه من شراب وميسر ولهو وغير ذلك من ماديات بل حبب إليه التأمل والبحث في أمور ما وراء الفيزياء.

ويؤكد علم الروح الحديث (الباراسيكولوجي) على أن حب الخلوة والتأمل هو الأساس أو المقومات اللازمة التي لابد أن يمر بها كل روحي راق أخذ في تدريب نفسه أو في إعدادها لاستقبال المساعدة من العوالم الأعلي فهو صلى الله عليه وسلم لم يشذ عندما كان يعشق الخلاء عن القانون الروحي الذي ألهمه الله جل وعلا لمصطفيه من الرسل وعرفه كثير من المجتهدين منذ الأزل لأجل تدريب النفوس بالمجاهدة وقد تتأكد أهمية الحياة في الخلاء والتأمل عند الرسول صلى الله عليه وسلم من إجابته عن سؤال / أي الناس خير؟ بقوله (رجل جاهد بنفسه وماله ورجل في شعب من الشعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره).

وحيث أنه لم يكن في بدء حياته وشبابه مجال لأن يكون الرجل الأول فكان الرجل الثاني صديق الخلاء ومؤنس غار حراء.

وفي الحقيقة لم يكن محمد صلى الله عليه وسلم بدعا بين قومه في اتجاهه إلى الجبل ليختلي بنفسه إذا أنها عادة العرب إذ ذاك أن ينقطع مفكروهم - وإن كانوا ممن يكبرون محمدا آنذاك سنا بكثير -

للعبادة زمنا في كل عام يقضونه بعيدا عن الناس في خلوة يتقربون إلى آلهتهم بالزهور والدعاء ويتوجهون إليها يلتمسون عندها الخير والحكمة وكانوا يسمون هذا الانقطاع للعبادة التحنف أو التحنث، ولكن شتان ما بين متحنث سجد لصنم، وتغلغل الشرك في قلبه ووسوس الوسواس الخناس في صدره - ومتحنف على فطرته السوية، التي خلقه الله عليها، ولم يسجد قط لصنم، وإنما يبحث عن الحقيقة في دأب وجهد، وصبر، لذا فلم يكن من العجيب أو المستغرب في رأيي أن يكون هناك أعراب عديدون يتحنثون، ولا يصل أحد منهم إلى نتيجة من تحنثهم سوي هذا الشاب الصادق الأمين الوقور محمد الذي يزداد قربه يومًا بعد يوم بخطوات ثابتة من الحقيقة، التي هيأه العلي القدير، واصطفاه لها ليلتقي فيه عالم الروح وعالم المادة، ليكون هاديا ومبشرا ونذيرا وسراجا منيرا للإنسانية جمعاء ورحمة للعالمين.

ونظرا لأن التاريخ يؤكد لنا أنه صلى الله عليه وسلم كان أحد أربعة كفروا، بأوثان قريش وفروا من محيطها، من بينهم ورقة بن نوفل وعثمان بن الحويرث اللذان اعتنقا المسيحية، والأول اعتزل الناس، والثاني هرب إلى القسطنطينية (ولا يعلم أحد على وجه اليقين أي نهج كان محمد صلى الله عليه وسلم آنذاك أثناء تحنثه هذا، وقبل بعثه فاجتهد البعض بالقول: إنه شرع نوح. وقيل: إبراهيم. وقيل: موسي. وقيل: عيسي. وقيل: كل ما اقتنع بأنه شرع عنده، يرفض السجود للآصنام، والتعبد بها أو بمعني آخر أنه كان محايدا لا يميل إلى أي شريعة بالذات).

وقد يجدر الذكر هنا أن مكة نفسها آنذاك لم يكن ليدخلها أي

شخص كتابي، اللهم إذا كان أجيرا فهي إذا كانت بدون شريعة ولا كتاب.

وقد تستدعي هذه النقطة منا الكثير من الانتباه وهي أن الإنسان الذي يعد لاستقبال أي إلهام جديد من عالم الروح، يلزم عليه أن يتخلص من الآراء القديمة والعقائد والعادات التي تربطه بدستور الحياة، ودوامات التفكير التي تدور في محيط قومه، وأن يطهر نفسه من أي رجس يمس جسده أو نفسه أو حتى ثيابه.. وهو ما يطلق عليه علم الروح الحديث ب (حالة الفراغ العقلي) وفي هذا المعني (ظاهرة الفراغ العقلي) يقول الدكتور العالم على راضي رحمة الله (حياة محمد):

(... يمكننا أن نشاهد مثل هذه الظاهرة مع كثيرين من المفكرين الذين وجدوا أنفسهم فجأة أحرار العقول بالنسبة لغيرهم حساسين للإلهام محبين لكل ومضة من نور يبدد ولو ذرة مما أحاط بهم من ظلام ولأضرب مثلا لما أقول بالإمام الغزالي عندما تصارع مع نفسه وكتب عن قصة حياته في كتاب (المنقذ من الضلال) **ويقول في وصف تلك اللازمة النفسية**: " فكان لا ينطق لساني بكلمة واحدة أحسست بعجزي وسقط بالكلية اختياري " وخرج من بغداد هائما على وجهه تاركا مكانته الدينية العالية في قومه، ويصف ما أشيع عنه وقتئذ بقوله: (ثم ارتبك الناس في الاستنباطات) ثم هداه الله بعد ذلك لاكتشاف نفسه وأنقذها من معمعة الحياة التقليدية، واستفاد من تصوفه، وانفراده بذاته حتى ألف ما ألف، وأصبح يسمي بحجة الإسلام، وأما المثل الثاني فهو القسيس الانجليزي ستينسن موسي، الذي ضاق بسطحيات اعتقاده فحار عقله، وطلق مهنته وظل في

حالة فراغ عقلي، حتى هداه الله عندما اكتشف أنه وسيط روحي واتصل بعالم الروح، ومنه عرف الخطأ في نظرية ألوهية المسيح وغير ذلك مما دونه في كتابه الشهير (تعاليم روحية) وأصبح مدينا فيما وصل إليه من علم إلى اليوم الذي فرغ عقله من الرواسب الماضيات...

وغير هذين المثلين كثير... إذ يتكون الإنسان من جسم مادي وجسم روحي الأول، يتبع قوانين العالم المادي والثاني يتبع قوانين العالم الروحي، ولكي يتصل الأحياء في هذين العالمين، يجب أن يكون هناك أجهزة اتصال، والروح الذي يحمل الرسالة القادمة من عالم الروح يسمى جهازا مرسلا، أو رسولا، أو وسيطا، أو الروح المرشد من العالم الروحي والإنسان الذي يتلقي تلك الرسالة على الأرض، يسمي جهاز استقبال أو رسول أو وسيط ذلك العالم المادي وتختلف هذه الأجهزة المستخدمة في الاتصال اختلافا بينا، فقد يدخل فيها ملائكة وأرواح بشر وجن وغير ذلك من مخلوقات الله العديدة.. وكل نوع من هؤلاء له درجاته المتفاوتة.

ومن هنا يمكننا أن نميز السادة الأنبياء عن سواهم من البشر وذلك لأنهم رجال كانت درجاتهم الوساطية عالية بحيث مكنتهم من الاتصال بالملائكة أو بجبريل في حين أن بقية البشر دون ذلك. كما أن الأنبياء يكونون بفضل من الله في صيانة دائمة، أما بقية البشر فهم أجهزة قابلة للتلف والانحراف بدرجات متفاوتة، ويمكنني أن أقرب هذا إلى الأذهان بمثل علمي، هناك جهاز لاسلكي تكون ذبذبته عالية وعلى درجة كبيرة من الثبات أي غير قابلة للتغير (الذي يستعمل بللورة كوارتز مثلا) وهناك جهاز آخر تكون ذبذبته أقل

وعرضة للتغيير الأول يمثل الأنبياء والثاني يمثل بقية البشر، ومعني علو الذبذبة وثبوتها في الجهاز الأول هو أن الجهاز يظل مترنما على نفس الموجة المرسلة إليه (جبريل عليه السلام فقط) ومعني انخفاض الذبذبة، وعدم ثبوتها في الجهاز الثاني هو أن الجهاز يمكنه الاتصال بمستويات منخفضة ومختلفة في نفس الوقت أي ليس له مصدر ثابت أي مصادر أقل مرتبة ومتباينة ").

وقد نخلص مما تقدم أن الله جل وعلا قد أودع في كل نبي بعد إعداده وتهيئته جوهرة روحية ثمينة تكفل له الثبات على درجته من الروحية طوال حياته، وهذه الجوهرة الروحية هي التي جعلتهم مرتفعين في الذبذبة عن سائر البشر، وإن كانوا غير مختلفين عنهم في التكوين العام..

ومن المتعارف عليه أن الاتصال الروحي مع الأحياء لا يكون مع أجسامهم الفيزيقية، وإنما مع الجسم الروحي فيهم، وأن الاتصال مهما كان نوعه يكون بين جهازين من نفس النوع، ومن هنا قد نفهم ما وراء حرص الغرب الشديد والمراكز الروحية فيه على (الوسطاء الروحيين الراقين) وتوفير كافة الأسباب اللازمة للحفاظ عليهم، وعلى مستوياتهم وتوجيههم التوجيه الصحيح وبما يكفل متابعة تقدم العلوم الروحية لديهم..

ومن المتفق عليه بين علماء الروح أنه يتعذر تماما الاتصال بين عقلين لنقل الأفكار (تلباثي) من شخص إلى الآخر داخل المدن والمجتمعات المزدحمة، وهذه بدهية علمية يعرفها الكثيرون إذ أنه لكي تنقل إشارة لاسلكية من محطة إذاعة إلى جهاز استقبال وتكون واضحة جلية يجب ألا يكون هناك تداخل أو ضوضاء صادرة من

محطة إرسال أخرى ويؤكدون على الأهمية القصوى للخلوة لإيجاد الإنسان في حالة صفاء ذهني تمكنه من استقبال أفكار العقول الأخرى سواء كانت هذه العقول حية في عالم الأرض أو متنقلة أي في عالم الروح لذا فإن الأنبياء والحكماء والكتاب والشعراء ورجال الفنون والعلوم والاختراع، بل وكل المفكرين على مر العصور لا يتلقون أفكارهم في زحمة المجتمع الذين يعيشون فيه، وإنما يتلقونها إذا كانوا في وحدة مع أنفسهم.

ويؤكد هنا علماء الروح على أنهم في الحقيقة لا يكونون مع أنفسهم فقط بل يكونون مع أرواح عالية تلهمهم في عملهم، وترشدهم فيما يتعلق بدنياهم، وما وراء دنياهم، وقد يكون الروح المرشد هذا واضحا للشخص وقد يكون صوتا هاتفا أو فكرة عابرة، أو مجرد إيحاء داخلي، ولكنه بالتأكيد مؤثر خارجي مستقل تمام الاستقلال عن ذات الإنسان، ولكي يستفيد منه المرء أكبر فائدة يجب عليه أن يسترخي أو ينسي وعليه أو يذهب في غيبوبة خفيفة أو عميقة، وهذه الحقيقة يعلمها الكثيرون، عندما يريدون الاهتداء إلى فكرة صائبة فهم يختلون بأنفسهم ويذهبون في شبه صلاة صامتة مركزة، وسرعان ما تأتيهم الإجابة على السؤال الذي حير بالهم، فالغيبوبة هي نوع من الاختلاء بالنفس، واختفاء الوعي عن السطح يفسح المجال للذات الأعلي في البروز، والتي لها من الإمكانيات والملكات ما لا تمتلكه الذات الظاهرية، وهناك أمثلة عديدة في العالم اليوم تؤيد ذلك.

يقول الموسيقار الشهير موزارت: (عندما أكون في شخصيتي الكاملة وحدي تماما، وفي حالة انشراح في هذه الحالة تتدفق أفضل

الأفكار وأوفرها كيف تجيء؟ أنا لا أعرف كما أني لا أغتصبها).

وكذلك عرف عن بيتهوفن والفارابي الموسيقار العربي العظيم (الذي اخترع آلة القانون) وغيرهما من الموسيقيين العظام أنهم كانوا لا يتلقون إبداعاتهم، وألحانهم الخالدة إلا عند مجتمع ماء، أو مشتبك رياض، أو فوق قمم الجبال، وكذلك كان معظم الشعراء والكتاب على مر السنين...

يقول الرسام المعروف هويسلر: إن الدقائق الأخيرة التي أمضاها وهو في حالة شبه غيبوبة، هي التي خلفت من صورة أمه لوحة خالدة.

والمخترع العظيم أديسون اعتاد أن يأخذ فترات استرخاء أثناء عمله وفي تلك الفترات القصيرة من الاسترخاء والتأمل جاءت له حلول المسائل للمعضلات، التي كان يبحث فيها، وقد قال في ذلك:

(.. أن الساعات التي قضيتها وحيدا مع مستر أديسون جاءت لي بالفوائد العظمي في حياتي، ولها أعزو كل ما وصلت إليه).

ويقول بول برنتون في كتابه الشهير (الطريق السري) تعليقاً على ما قاله كاتب فرنسي من أن الكون هو الله بقوله (على أن يكون سكونا للجسم والأفكار والشهوات، وليس سكونا شفويا فقط في هذه اللحظة السامية يبدأ الله في الهيمنة، على نفسك وكل ما عليك عمله هو أن تمارس الطريقة التي تسلم بها نفسك إليه إلى أبعد حد).

فالاختلاء بالذات هو في الواقع المعمل الذي يتمكن فيه الإنسان من اكتشاف نفسه، وجوهرها بعيدا، عن أدوات الحياة التي تحاول طمس معالمها وتشويه منظرها، وفي هذا المعنى

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم:

♂.. **إذا أراد الله بعبد خيرا جعل له واعظا من نفسه..**ـــ أخرجه البخاري ومسلم.

يقول العالم هاري إدواردز في كتابه المرشد للتدريب الوساطي:

(يوجد في عالم الروح هؤلاء الذين مهمتهم هي إرشادنا ونحن في الوجود المادي، هم شخصيات نبيلة ذات نوايا طيبة، ونكون صادقين تماما لو قلنا: إن الأرواح المرشدة تنجذب إلى الآدميين الذين تربطهم بهم علاقة من نوع ما أي أن الشبيه ينجذب إلى شبيهه).

ويقول العالم سويدنبرج في كتابه " الجنة والنار " :

(يتجاذب المتشابهون لأنهم يشعرون بالألفة معا في حين يشعرون مع الآخرين أنهم أغراب، ومع أشباههم يشعرون أيضا بالحرية وجميع مباهج الحياة..).

والواضح أن نظرية الاتصال الروحي، كما ينادي بها الروحيون المحدثون ما هي إلا مصداق لقول الرسول صلى الله عليه وسلم:

♂**الأرواح جنود مجندة ما تشابه منها ائتلف وما تنافر منها اختلف**ـــ.

والخلوة بشكلها الصحيح ليست مجرد انطواء أو تعالٍ على النفس، وإنما هي معمل يأتي مع الصبر والطهارة، والعفة بنتائج عملية وخبرة علمية لا يشعر بقيمتها إلا مجربوها، وهناك مذاهب مختلفة تؤيد الخلوة وتحض عليها، ولو أنها تحمل أسماء مختلفة، فمنها المذهب الصوفي، وفيه يزهد الإنسان الملذات الدنيوية،

ويتوسل إلى الله بالعبادات، وهو طريق قديم سلكه المسلمون وغيرهم، وهناك المذهب الروحي وهو لا يختلف عن الصوفي كثيرا، وإن كان يعتمد على التركيز الشديد للإنسان في جلسته، إلى أن يصبح في خلوة مع نفسه، وبالكيفية التي تسمح له بالابتعاد عن ضجيج وزحمة الحياة، إلى أن تتكشف له المواهب الروحية بالتدريج.

وفي هذا المعنى وحوله يقول الإمام الغزالي رحمه الله عن نفسه وفائدة الخلوة له: (وآثرت العزلة، حرصا على الخلوة وتصفية القلب للذكر، وانكشف لي في أثناء هذه الخلوات أمور لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها) ويقر بأن سنين العزلة، جعلته يكتب مؤلفاته المشهورة إلهاما من روح مرشد فيقول في كتابه " المنقذ من الضلال " : (لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم وإني لم أتحرك لكنه حركني وأني لم أعمل لكنه استعملني).

ثم يبلغ الإمام الغزالي الذروة في إثبات المواهب الروحية فيقول:

(ومن أول الطريقة تبتدئ المكاشفات والمشاهدات حتى إنهم في يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد، ثم يترقي الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق النطق، ولا يحاول معبر أن يعبر عنها إلا اشتمل لفظه على خطأ صريح لا يمكن الاحتراز عنه).

ويتكلم عن كيفية تفجير العلم بما خفي على الإنسان وغيره من الوساطات الروحية من داخل القلب فيقول: (إنما هو تقديم المجاهدة ومحو الصفات المذمومة، وقطع العلائق كلها و الإقبال بهمة على

الله تعالى وإذا صدقت إرادته وصفت همته وحسنت مواظبته تلمع لوامع الحق في قلبه ويرتفع الحجاب بلطف خفي من الله تعالى فينكشف له الغيب ويحصل له اليقين).

ويقول أيضا عن الاعترافات بالوساطات الروحية:

(فمن أمن بالأنبياء، وصدق بالرؤيا الصحيحة لزمه لا محالة أن يقر بالبصيرة، أو بتعبير آخر يقر بباب القلب، ينفتح على عالم الملكوت هو باب الإلهام والنفث في الروع والوحي).

ثم يربط الغزالي بين الأنبياء والصف الذي يليهم أي الأولياء فيقول:

(فمن لم يرزق منه شيئا بالذوق فليس يدرك من حقيقة النبوة الاسم وكرامات الأولياء، هي على التحقيق بدايات الأنبياء، وكان ذلك أول حال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أقبل على جبل حراء حين كان يخلو فيه بنفسه ويتعبد).

ويقول أيضا: (فالأنبياء والأولياء انكشف لهم الأمر، وفاض على صدورهم النور، لا بالعلم والدراسة والكتابة للكتب، بل الزهد في الدنيا والتبرؤ من علائقها وتفريغ القلب من شواغلها).

والخلوة تعلم الإنسان الاتصال بخالق الناس فلقد قال الجنيد يوما:

(أنا أكلم الله منذ ثلاثين سنة، والناس يظنون أني أكلمهم..).

ويروي الإمام المراغي أن الاستعداد الروحي يمهد للنبوة (لكن النبوة حكمة لا تنال بالكسب، لكن حكمة الله وعلمه جدير بأن تمنح للمستعد القادر على حملها.. والرسول صلى الله عليه وسلم أعد لأن يحمل

الرسالة للعالم أجمعه).

هذا ويؤكد علماء الروح في العالم بما فيهم المسلمون على أن الوسطاء الروحيين الراقيين لا بد وأن يكونوا على درجة كبيرة من الشفافية والعفة والطهارة وعلى درجة إيمانية عالية بالله عز وجل.

وفي هذا المعنى يقول العالم الدكتور/على راضي (المصدر السابق) رحمه الله:

("... وفي الحقيقة إن كل مسلم يجب أن يعترف ويسلم بوجود كل أنواع الوساطات الروحية، وبقدرة الروح على التصرف بمعايير مختلفة وهي في الجسد أو خارج الجسد - جاء في الحديث القدسي: إن الله تبارك وتعالى قال:

♂**من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشيء أحب إلى مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه..**ـــ.

وحول هذا المعنى يعلق الشيخ العالم / محمد حسنين مخلوف على هذه المرحلة بقوله:

("... يوجه العبد إرادته للشيء، فينفعل عنه بإذن الله تعالى بدون حاجة إلى الآلات البدنية، أو غيرها مما شأن العقل أن يتوقف عليه.. ").

هذا وعدا الصوفيين والروحيين، يوجد اليوجيون وفقراء الهنود، ومن شابههم، وتتلخص طرقهم في تدريب الجسد تدريباً شاقاً ومرهقاً

لتتكشف له حواسه العليا ومن العجيب الملفت للنظر أن تدريباتهم قائمة على معرفة التشريح الأثيري لجسم الإنسان، ولكن على أية حال لا تصل قدراتهم إلى القدرات والمواهب الروحية للصوفيين والوسطاء الروحيين الراقين.

* * *